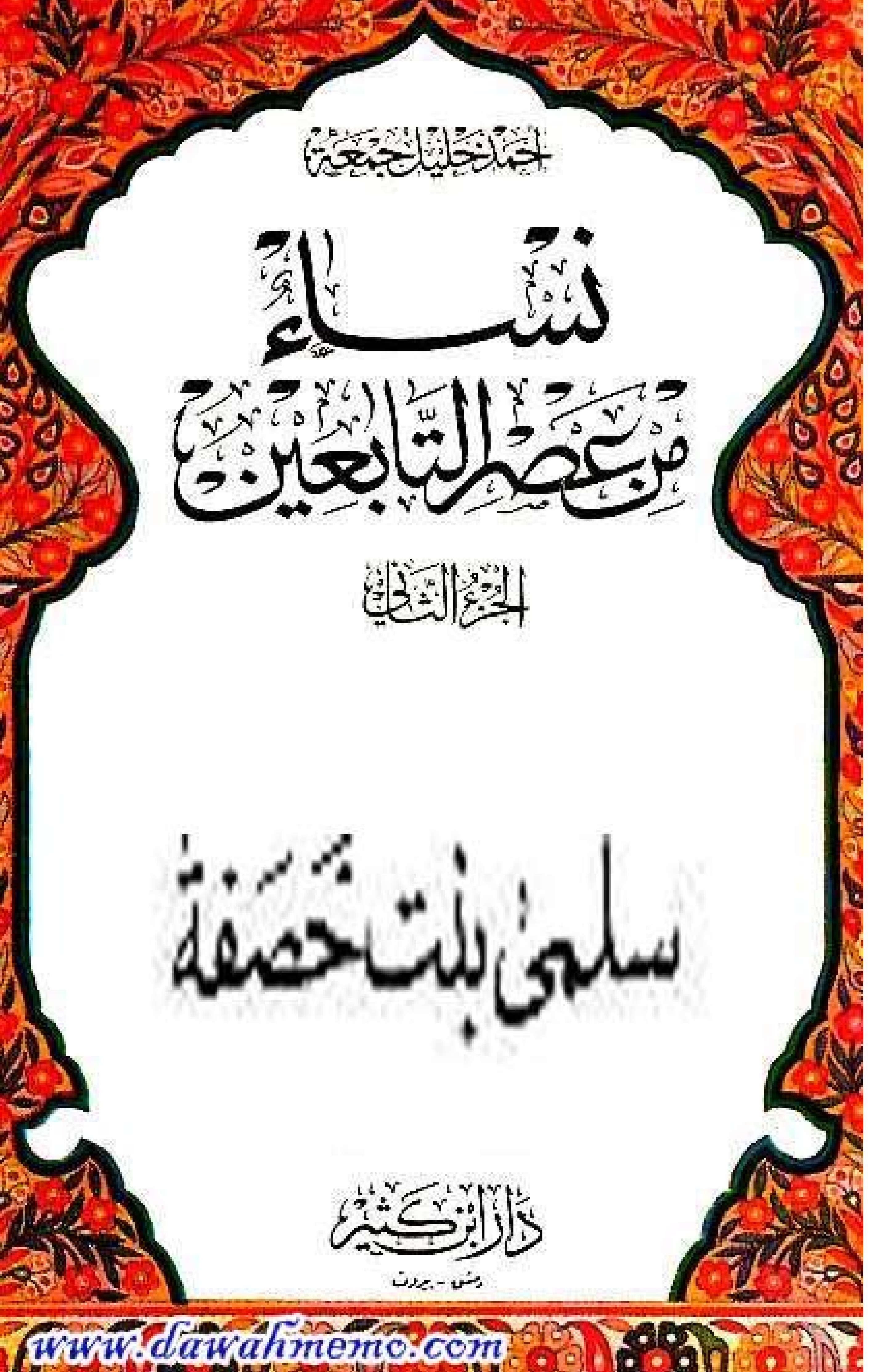

أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
الجزء الثاني
سلمى بنت خصفة
دار اليمامة
دمشق - بيروت
www.dawahmemo.com

(٧)

سلمى بنت خصفة

* زوجها المثنى بن حارثة الشيباني ، ثم خلف عليها سعد بن أبي وقاص ، أخرجت أبا محجن الثقفي من محبسه ليخوض حرب القادسية ، ذات رأي حسن وفراسة .

سَلْمَى بنْتُ خَصَفَة

المَرْأةُ والحَرْبُ :

* لم تكن نساءُ العربِ في صَدْرِ الإسلام قواعدَ بيوت ، بل كانت النّسوة يخرجن مع المجاهدين فيحرضنهم على القتالِ والاستبسال ، ومنهنّ مَنْ كُنَّ يداوين جرحاهم ، ويساعدنَهم أثناء الحرب فيما يحتاجون إليه من قضاء حوائجهم .

* وكانت بعض النّسوة قد خُضن ساحات الوغى بكلِّ بسالةٍ ورباطة جأشٍ ، وحُزْنَ النّصر المبين على الأعداء ، وقد وعتْ ذاكرةُ التّاريخ عدداً من فُضليات المجاهداتِ ، منهن الصّحابية الجليلة نسيبةُ بنتُ كعب[١] ـ رضي الله عنها ـ ، وأسماءُ بنت يزيد[٢] الأنصارية ، وأسماءُ بنت أبي بكر[٣] ـ رضي الله عنهما ـ .

* وفي عصر التّابعين برزت خولةُ بنت الأزور الكندية ، وغزالةُ الحرورية زوجةُ شبيب بن يزيد ، وأمُّ حكيم التي اشتركت في القتال بجيشِ قَطَرِيّ بن الفجاءة ، وكانت تُحاربُ وهي تقول :

---

(١) و (٢) و (٣) اقرأ سيرهن في كتابنا « نساء من عصر النبوة » الجزء الأول والثاني .

أَحْمِـلُ رأسـاً قد سئمتُ حَمْلَه
وقـد مـللتُ دهنـه وغَسْـله
ألا فـتًى يَحْـمِـلُ عنّي ثقْـلَه

* وتبرزُ امرأة تابعيـة كان لها كبير الأثر في الشّجاعة والحميّة والمشاركة في حماية المسلمين ، والذّود عن حياضِ الدِّين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وقد تألّقتْ بحُسْنِ رأيها وفراستها في معركة القادسية ، فاستحقّتْ بذلك الخلود مع الخالدات في دنيا النّساء الفاضلات .

* إنّها سلمى بنتُ خَصَفَة[1] ، من فاضلات نساء عصر التّابعين ، وممن عاشت فترة الفتوحات الإسلامية الأولى ، وشاركت في حضور ساحات الجهاد ، فكانت مِمَّنْ آسينَ الجرحى وواسينَ جراحاتهم .

* كانت سلمى بنتُ خصفة التّيمية ـ تيم اللات ـ زوجاً للصّحابي المشهور المثنّى بن حارثة الشّيباني ـ رضي الله عنه ـ الذي دوّخ الفرس ، وكان له الفضل في فَتْحِ بلادهم ، فقد أطْمَعَ أبا بكرٍ والمسلمين في الفرس وهوّنَ أمرهم عندهم ، وكان ـ رضي الله عنه ـ شهماً شجاعاً ميمونَ النّقيبة حَسَنَ الرّأي ، أبلى في قتال الفرس بلاءً لم يبلغه أحدٌ ، وجُرِح يوم جِسْر أبي عُبيد ، فانتقضتْ جراحه وماتَ شهيداً ؛ وذلك في سنة (١٤ هـ)[2] .

* * *

(١) الإصابة (٣٢٤/٤) ، والأعلام للزركلي (١١٤/٣) .
(٢) تاريخ الطبري (٣٨٤/٢) .

سَلْمَى وَسَعْد :

* لما استشهد المثنّى بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ ، كان قد أَمَرَ أَنْ يسيرَ المسلمون إلى القادسيةِ ، كما أوصى بسلمى ، وأَمَرَ أصحابَه أَنْ يعجلوها على سعد بن أبي وقاص ـ وكان قرب القادسية ـ فلما انتهى إلى سعد ما أوصى به المثنّى ترحّم عليه ، وأوصى بأهل بيته خيراً .

ولما انقضتْ عدة سلمى ، خطبها فتزوّجها وبنى بها بمكان يقال له « شراف » ، وكان مع سعد في النّاس يومئذ بضعةٌ وسبعون بدرياً ، وثلاثمئة وبضعة عشر ممّنْ كانت له صُحبة في بيعةِ الرّضوان إلى ما فوق ذلك ، وثلاثمئة ممّنْ شهد الفتْح ، وسبعمئة من أبناء الصّحابة[1] .

* ونزل سعد بزوجهِ سلمى إلى القادسية حيث كانت جموعُ الفرسِ تعسكرُ هنالك ، وشهدت سلمى مع سعد القادسية وغيرها ، ولكنْ كان لها في معركة القادسيةِ[2] شأنٌ كبير .

* * *

---

(١) الكامل في التاريخ (٤٥٣/٢) .

(٢) كان لمعركةِ القادسية كبير الأثر في تاريخنا الوضيء ، فقد كانت الجزيرة العربيةُ ـ عصر ذلك ـ كلّها قد تعلّق فؤادها بهذهِ المعركة لِما كانت ترى فيها مصيرها ، فإمّا أن ينتصر العربُ على الفرسِ إلى الأبد ، وإمّا أن ينهزموا إلى الأبد .
وكانت لا تزال تتسقّطُ أخبارها تريدُ أنْ تعرف ما سيكون من أمرها ، حتى كان الرّجلُ يُعرضُ عليه أمرٌ من الأمور فيقول : لا أنظرُ في هذا حتى أرى ما يكون من أمْرِ القادسية . فلما جاءهم النّصر العظيمُ ، وزفّت إليهم بشراه ، راحوا يتغنون بنصر الله عزَّ وجلَّ ، ودحْرِ جيوش الفرس ، ومقتل قائدهم « رستم » الذي خرَّ صريعاً لليدين وللفم في أرض القادسية يتخبط في دمه .

وَامُثَنَّياه :

* قبل أنْ تبدأ معركة القادسية ، أصابتْ سعداً ـ رضي الله عنه ـ بعض القروح والدّمامل في جسمـه ، فكان من شدّةِ الألم لا يستطيعُ الجلوس ، فلما كان يوم أرماث ـ وهو أول يوم من أيام القادسية ـ جالَ النّـاس ، ولم يستطعْ سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ مباشرة القتال لما به من القروح ، لكنّه صَعِدَ وهو متحاملٌ على نفسه وآلامه إلى أعلى القصر ؛ الذي كان ينزل فيه بالعُذيب لينظر في مصالح الجيش ، وفي الشّرفة جلس متكئاً على صدره .

* وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يُغْلَقُ عليه باب القصر لشجاعته ، ولو فرَّ النّاس لأخذته الفُرس قبضاً باليد لا يمتنع منهم ، وكانت بجانبه امرأته سـلمى بنت خصفة ـ وهي ترى ما به من الألم ـ فلما رأت سعداً يتمـلمـل ويحوقل فوق القصر ، وهو يخشى على أصحابِهِ من غَدَرَات الفُرْس ، فلمّا فرَّ بعض الخَيل يومئذٍ ، ورأت ما يصنعُ أهل فارس فزعتْ وقالت : وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم ! ـ قالت ذلك عند رجلٍ ضجرَ مما يرى في أصحابه ونفسه ـ .

فغضبَ سعد ـ رضي الله عنه ـ من ذلك ولطمَ وجهها وقال :

أينَ المثنى من هذه الكتيبة التي تدورُ عليها الرّحى ؟! .

فقالت : أغيرةً وجبناً ـ يعني أنّهـا تعيره بجلوسـه في القصر يوم الحرب ـ .

فقـال ـ رضي الله عنـه ـ : واللهِ لا يعذرني اليوم أحدٌ إذا أنتِ لم

تعذريني ، وأنتِ تَرَيْنَ ما بي ، فالنّاس أحقّ ألا يعذروني ! .

فتعلّقها النّاس ولاموها ـ وكان سعد غير جبان ولا ملوم[1] ـ ، ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى اعتذرت سلمى عمّا بَدَرَ منها إلى زوجها سعد ، وطلبت منه أنْ يصفَحَ عنها ، فكان ذلك .

* * *

هَلْ لَكِ إلى خَيْرٍ ؟ :

* أوردتِ المصادرُ موقفاً رائعاً لبطلة ترجمتنا سلمى بنت خصفة يوم القادسية ، إذ تصرَّفتْ تصرفاً دَلَّ على فراستها وذكائها في وقت من أشدّ الأوقات حرجاً على جيش المسلمين .

* فقد كان أبو محجن الثّقفيّ ـ واسمه عبد الله بن حبيب ـ من الشُعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام . وكان أبو محجن شاعراً فارساً معدوداً في أولي البأس والنّجدة ، إلا أنّه كان من المعاقرين للخمر ، وقد حُدَّ[2] فيها أكثرَ من مرّةٍ فأمرَ به سيّدنا عمر بن الخطاب

---

(١) الكامل (٤/٤٧٣) .

(٢) الحدُّ في الشّـرع : عقوبةٌ مقررةٌ لأجلِ حقّ الله عزّ وجلّ لأنها مقررةٌ لصالح الجماعة ، وحماية النّظام العام . والحدُّ : جمعه الحدود . والحدُّ في الأصل : الشيءُ الحاجز بين شيئين .

واتفق الفُقهاء على وجوب حدّ شارب الخمر ، وعلى أنّ حدّ الجلد ـ أربعون ـ .

وفي حدّ شارب الخمر قولان :

أحدهما : ثمانون جلدة .

والآخر : أربعون جلدة . =

أنْ يُنفى ، وبعثَ إلى سعد بن أبي وقاص أن يحبسَه ، فسجنه سعد ، وقيّده بالحديد في قصره بالعُذيب في القادسية .

* ولما اشتدَّ القتال بين جيشِ المسلمين وجموع الفرس ، وحمي وطيسُ المعركةِ ، وأخذتِ الأصواتُ تصلُ إلى سَمْع أبي محجن ، صَعِدَإلى أعلى القصر في الليل ، وسأل سعداً أن يعفيَه من السّجنِ ويستقيله ليخوض غمارَ المعركة ، ويكون ممن شرى وباع فيها ، غير أنَّ سعداً ـ رضي الله عنه ـ ردَّهُ ، فنزل أبو محجن وقلبُه يكاد يتفطر من شدَّةِ ما حلَّ به ، فأتى يرسفُ في قيوده إلى زوج[1] سعد سلمى بنت خصفة فقال :

يا سلمى يا بنت آل خَصَفَة ، هَلْ لكِ إلى خيرٍ ؟ .

= فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : أُتي رسول الله ﷺ برجل قد شرب الخمرَ ، فضربه بالنّعال نحو من أربعين ، ثم أُتي به أبو بكر فصنع مثل ذلك ، ثم أُتي به عمر فاستشار النّاس في الحدود فقال ابنُ عوف : أقلّ الحدود ثمانون ، فضربه عمر . رواه البخاريّ ومسلم . ـ والقَذْف : هو أقلّ الحدود ـ .

إذن فحدُّ شارب الخمر أربعون جلدة ، والزّيادة تجوز إذا كان ثمّةَ مصلحة للمسلمين . ومن الجدير بالذكر أنّ تحريمَ الخمر كان بعد غزوة الأحزاب .

وقد حرّمَ الإسلام الخمر ، لأنّها أمّ الخبائث ، ولأنّها تضعفُ الشّخصية ، وتذهبُ بالعقل ، يقول أحدُ الشّعراء في هذا :

شربتُ الخمرَ حتى ضلَّ عقلي كذاكَ الخمرُ تفعل بالعقول

وبذهاب العقل يستوي الإنسان والحيوان ، لا بل يتحول الإنسان إلى مجموعة من الشُّرور والفساد ، كالقتل والعدوان والفحش وغير ذلك . نسأل الله العافية .

(١) « زوج » : جمعه أزواج . والمرأة زوج الرّجل وهو زوجها ، هذا هو الأفصح ، وهو لغة قريش وبها نزل القرآن كقوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ [البقرة : ٣٥] . ومن العرب من يقول : زوجة وهو نادر ، لا يكادون يقولونه .

قالت : وما ذاك يا أبا محجن ؟ .

قال : تخلّينَ عني ، وتعيريني البَلْقَاء ـ فرس سعد ـ فللّه عليّ إنْ سلّمني الله أنْ أرجعَ إليكِ حتى أضعَ رجلي في قيدي ، وإنْ قُتلتْ استرحْتُم مني .

فأوجستْ خيفةً في نفسها سلمى باديء الأمر ، ثم قالت : وما أنا وذاك دعني من هذا؟ .

فرجعَ يرسفُ في قيوده ، وأنشأ يقولُ في تحرّقٍ وندم :

كفى حزناً أنْ تردي الخيلُ بالقنا
وأُتركَ مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمتُ عنّاني الحديد وأُغلقتْ
مصاريعُ دوني قد تُصمُّ المناديا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ
فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
وقد شفَّ جسمي أنني كلَّ شارقٍ
أعالجُ كبلاً مصمتاً قد برانيا
فلله درّي يوم أُترك موثقاً
وتذهل عني أسرتي ورجاليا
حبيساً عن الحرب العَوان وقد بدتْ
وأعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهدٌ لا أخيسُ بعهده
لئن فُرجتْ ألاّ أزورَ الحوانيا

وسمعتْ سلمى ما ينفث به أبو محجن ، ولاحظت شدة تأثره وندمه ، وتفرّستْ في ملامحه ، فرأتْ علائم الصّدق في وجهه ، عندئذ قالت له : يا أبا محجن ، إنّي استخرتُ الله عزّ وجلّ ورضيتُ بعهدك ، وأطلَقَتْه من قيدِهِ ، ثم قالت له : هذا ما أستطيع أنْ أقدمه لكَ ؛ أمّا الفرس فلا أعيرها ، ورجعت إلى بيتها .

واستطاعَ أبو محجن أنْ يصلَ إلى البَلْقاء ، فاقتادها ، وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق ، فركبها ثم دبَّ عليها ، وأخذ الرّمح ، وانطلقَ حتى أتى النّاس ، ولما كان بحيالِ الميمنة كبَّر ، ثم حَمَلَ على مَيْسَرةِ القوم يلعبُ برمحه وسلاحه بين الصّفينِ ، ثم رجع من خلف المسلمين ، وحَمَلَ على ميمنة القوم يلعبُ بين الصَّفَّيْنِ برمحه وسلاحه ، فجعل لا يحمل على ناحية إلا هزمهم الله ، وكان يقصفُ النّاس ليلتئذ قصفاً منكراً .

وتعجَّبَ النّاس منه وهم لا يعرفونه ، إذ إنّهم لم يروه مِنَ النّهار ، فقال بعضهم : أوائلُ أصحاب هَاشم ، أو هاشم[1] نفسه .

---

(١) يقصدون بذلك هاشم بن عتبة - وهو هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزّهريّ ، صحابيّ وخطيبٌ مِنَ الفرسان ، يلقّبُ بالمرقال - ولُقّب بالمرقال : لأنّه يرقل في الحرب أي : يُسرع - من الإرقال : وهو ضربٌ من العدو - . وهاشمُ هو ابن أخي سَعْد بن أبي وقاص . أسلم يوم فتح مكة ، ونزل الشّام بعد فتحها ، فأرسله عمر - رضي الله عنه - مع ستة عشر رجلاً من جند الشّام مدداً لسعد بن أبي وقّاص في العراق ، وشهد القادسية مع سعدٍ وفُقئت عينه يوم اليرموك ؛ وكان من الأبطال الشّجعان المعدودين ، ومن الفضلاء الأخيار قتل سنة (٣٧ هـ) بصِفّين - رضي الله عنه - (أسد الغابة : ٤٩/٥ و ٥٠) ، و (الأعلام : ٦٦/٨) .

وجعل سعد ـ رضي الله عنها ـ يقول وهو مشرفٌ على النّاس من فوق القَصْرِ ينظر إلى أبي محجن وشجاعته : واللهِ لولا مَحبس أبي محجن لقلتُ : هذا أبو محجن ، وهذه البَلْقاء ! بينما قال بعض النّاس وقد تملّكهم العجب أيضاً : إنْ كان الخَضِرُ ـ عليه السّلام ـ يشهدُ الحروب فنظنُّ صاحب البلقاء الخَضِر نفسه .

وقال آخرون : لولا أنّ الملائكة لا تباشر القتال لقلنا : مَلَكٌ يقاتلُ معنا ويُثبّتنا .

ولم يزلْ أبو محجن يقاتلُ ، ولا يذكره المسلمون ولا يأبهون له ، لأنّه ـ كما يعرفون ـ قد بات في محبسِهِ وقد أثْقَلَتْه القيود ، ولم يعلموا أنّ مبيته كان تلكَ الليلة على صهوةِ الجواد ، لا في القيودِ والأصفادِ .

ولما انتصفَ الليلُ حاجزَ أهلِ فارس ، وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصرَ منْ حيثُ خرج ، ووضع عن نفسه وعن دابته ، ووفى لسلمى بعهده ، فأعادَ رجليه في القيد كما كانتا ، وطفقَ يقول والحماس يسيلُ على لسانه :

لقد علمتْ ثقيفٌ غيرَ فَخْرٍ
بأنّا نحنُ أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعاً سابغاتٍ
وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنّا وفدهم في كلِّ يوم
فإنْ عموا فَسَلْ بهِمُ عريفا

وليلة قادسٍ لم يشعروا بي
ولم أُشْعِر بمخرجيَ الزّحوفا
فإنْ أحبس فذلكم بلائي
وإنْ أترك أذيقهم حتوفا

* * *

سَلْمَى وَتَوْبَةُ أَبي مِحْجَن :

* وسمعتْ سلمى ـ رحمها الله ـ ما أنشده أبو محجن ، فَسَرتْ في نفسها فرحةٌ عارمةٌ بإطلاقه ، ومِنْ ثَمَّ وفائه ، فأقبلتْ نحوه وقالت له : يا أبا محجن ، في أيِّ شيء حبسك هذا الرّجل ؟ ـ سعد ـ قال : أمَا واللهِ ما حبسني بحرامٍ أكلته ولا شربته ؛ ولكنّي كنتُ صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يَدِبُّ الشّعر على لساني فأبعثه على شفتي أحياناً ، فيُساء لذلك ثنائي ، ولذلك حَبَسني لأنّني قلتُ :

إذا متُّ فادفني إلى أصْلِ كرمةٍ
تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنّني بالفلاةِ فإنّني
أخافُ إذا ما متُّ ألّا أذوقها

* وفي صباح تلك الليلة جاءت سلمى سعداً ـ رضي الله عنه ـ ، وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن ، فدعا به وأطلقه ، وأخذَ عليه العهد ألّا يُقْدِمَ على الخمرة ، فتاب أبو محجن إلى الله توبةً نصوحاً فلم يَعُدْ إلى معاقرتها أو ذكْرها ، ولم يعد يتكلم بقبيحٍ أبداً .

* وكان لسلمى بنت خصفة كبير الفَضْل في سبب توبة أبي محجن ، وفي حُسْن بلائِه مع المسلمين ، إلى أنْ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ نصره عليهم ، ودَحَرَ عدوَّهم ، وقهر كبّارهم وأذلَّهم إلى أبدِ الدّهر[1] .

* * *

وَدُودٌ وَلُودٌ :

* كانت سلمى بنتُ خصفة رحمها الله ـ ودوداً ولوداً ـ ، فقد أورد صاحب « الطّبقات » أنّها ولدت لسعد ذكوراً وإناثاً ، فالذُّكور هم : عُمير الأصغر ، وعمرو ، وعمران .

والإناث : أمّ عمرو ، وأمّ أيوب ، وأمّ إسحاق[2] .

* وظلّت سلمى ـ رحمها الله ـ في كنَفِ زوجها حتى توفاه الله في سنة (٥٥ هـ) .

* أمّا أولادها ، فقد ذكر ابن سعد في « الطّبقات » أن عمرو بن سعد ، وعمير بن سعد ، قد قُتلا يوم الحرَّةِ بالمدينة المنوّرة في سنة (٦٣ هـ) ـ رحمهما الله ـ .

* وأمّا سلمى بنت خصفة ، فقد وافاها الأجل قبل مَقْتلِ ولديها

---

(١) انظر القصة في المصادر التالية مع الجمع بينهما : تاريخ الطّبري (٤١٦/٢) ، والاستيعاب (١٨١/٤ ـ ١٨٥) ، وأسْد الغابة (٢٩٠/٥ و ٢٩١) ، والبداية والنهاية (٤٥/٧) ، والأغاني (١٣٩/٢١ و ١٤٠) ، والكامل في التاريخ (٤٧٥/٤ و ٤٧٦) ، والإصابة (١٧٣/٤ ـ ١٧٥) وغيرها من المصادر .

(٢) الطبقات (١٣٨/٣) .

بثلاث سنين ، وبعد وفاة زوجها بخمس سنين ، إذ كانت وفاتها في سنة (٦٠ هـ) على أصحِّ تقدير .

* وبهذا طوى الموتُ شخص سـلمى ، بينما نشر التَّاريخ صفحتها النَّاصعة التي تحكي مروءتها وشجاعتها ، وتجعلها في مقدمة النِّساء القدوة لمن أرادتْ أنْ تقتديَ بها .

* فرحم الله سلمى بنت خصفة ، وجعلها في مستقرِّ رحمته .

* * *